

العودة إلى النظرية البلاغية مع عبد المالك مرتاض

الدكتور: أحمد سعي

جامعة الشلف / الجزائر

مقدمة:

إن البلاغة العربية المعاصرة قد أصابها ما أصاب النحو من تهميش وتشويش، واتهام وإهمال. وكأن اللغات لا تنهض على أقدام النحو ولا على أكتاف البلاغة. فتتأخر النحو وتوقفت البلاغة. وُغدت اللغة العربية مكسورة الجناحين تتخبط بلا نحو وبلا بلاغة على مستوى الممارسات المكتوبة والمنطوقة، وعلى المستوى التعليمي بالفصل وعدم الربط بين علومها. وأصبحنا لا نجد فيها من يجيد. فنزل الأدب، وضاع الإبداع، واتهم البديع. وكأن البلاغة العربية المفترى عليها قد صارت عجوزا من الزمن الغابر، وقد فقدت محاسنها ووظيفتها في عصر التكنولوجيا الذي يرفض الكلامولجيا على حد تعبير بعضنا. وقد دافع الدكتور عبد المالك مرتاض ورافع عن البلاغة اللغوية باعتبارها منزلة رفيعة في التعبير الوظيفي الفعال في كل المجالات التواصلية التي تستعمل فيها اللغة.

1. العودة إلى النظرية البلاغية:

لو قرأنا الدكتور عبد المالك مرتاض لوجدناه لا يجتر مقولات البلاغيين العرب القدامى، وإنما يستثمرها ويتجاوزها في محاولة جادة لتجديد البلاغة اللغوية وتوظيفها في الخطاب مهما كان نوعه. ووضع الدواء على الجرح ومحاولة الإجابة بصراحة عن بعض الأسئلة المتعلقة بالتنظير البلاغي في العصر الحديث.

ومكانة الدكتور عبد المالك مرتاض في اللغة والأدب والنقد تخول له التنظير، وتجعله أحق به وأهلا له، وإن لم يدع هو هذا الغرض. فقد آن الأوان لطرح الأسئلة الجريئة عن كل شيء في البلاغة: عن بيداغوجية تعليمية البلاغة نظريا وتطبيقيا في مؤسساتنا التعليمية، وعن إعادة الاعتبار للبلاغة في الممارسات التعبيرية حتى نصل بالفعل إلى الكلامولجيا أي إلى تكنولوجيا الكلام، لئلا يكون الكلام طويلا، ولا قليلا، ولا

ثقيلا بفضل البهارات البلاغية. لأن مصيبة البلاغة قد ترجع إلى عدم معرفتها، فما تدرجنا في المسار التعليمي على تسميته بالبلاغة قد لا يكون هو البلاغة وإنما قد شبه لنا فيها كما يسمي الأطفال الصغار البرذون (le ponnet) أو الحمار حصانا أو كما نسمي السكر المحروق الممزوج بالماء عسلا وهذا يرجع إلى الخطأ النظري فالحكم على الشيء جزء من تصويره. وربما يعود إلى ضعف المستوى ومرض الذوق وتدني الثقافة. كما تقول الحكمة:

ومن يك ذا فم مريض يجد مرًا به الماء الزلالا

منذ أن توقف الفكر البلاغي العربي عن التطير، ووقف على الحدود والمعايير ووظف القواعد والقوانين يجترها ويلوكها في كل مناسبة طوعا وكرها، دخلت البلاغة العربية منذ ذلك الوقت في سبات طويل، ودخلت الزنزانة الضيقة المعتمدة التي تتلاشى فيها الألوان والأضواء والطيوف لتؤول كلها بحكم الضرورة إلى لون واحد ورأي واحد وقواعد واحدة ونظام واحد، ولا مجال للنقاش ولا لإبداء رأي آخر مخالف أو نقد لسدنة البلاغة وسلطينها الذين نصبهم التاريخ والأيام القديمة الجميلة، ولم يسمح لها التقليديون، ولا دعاة التغريب بالتخلص من هذه الوضعية.

والحق، أن البلاغة العربية، منذ ولادتها، كانت بنت نظرية الإعجاز، ثم نظرية النظم، ثم نظرية مقتضى الحال، ونظرية المعاني، ونظرية البيان، ونظرية البديع، وغيرها من النظريات البلاغية التي تفرعت وترعرعت في الفكر البلاغي العربي القديم. هذا الفكر العبقري الخلاق الذي يبدي الرأي، ويلد الفكرة، ويصوغ النظرية ويبرهن عليها بالشاهد من العقل والنقل. وقد ظهر منظرون كبار في التفكير البلاغي العربي القديم مثل الجاحظ والجرجاني وحازم القرطاجني وغيرهم من البلاغيين الكبار الذين تأسست البلاغة العربية على نظرياتهم التي أنشأوها إنشاء وأبدعوها إبداعا وأتقنوها إتقاناً وضبطوها ضبطاً. وتركوا الأبواب من بعدهم مشرعة مفتوحة، ولم يحجروا التفكير والنظر على أحد من بعدهم. ولكن الورثة، أو الخلف، لم يكونوا في مستوى السلف وحولوا البلاغة إلى مسلمات لا جدال فيها ولا نقاش. وأخذوا منها ما يناسب مستوياتهم الضحلة وحاجاتهم البسيطة، وأهملوا كثيرا من القضايا المهمة في البلاغة العربية القديمة التي لم يقرأها أحد إلى اليوم، وحتى القضايا التي تناولوها ولم يهتموها، قد تناولوها تناولاً سطحياً بسيطاً لا يرتقي إلى مستوى الوصف والتحليل، ناهيك عن مستوى النقد والمناقشة. واكتسبت البلاغة القديمة قداسة ممن يجهلونها ويجعلونها في المتحف من أجل تعزيزها واحترامها حسب زعمهم واعتقادهم ويرفضون تناولها وتداولها

بالفحص والبحث والنظر "قد تكتسب الأشياء قداسة كلما طال عليها الأمد، وما أشد كلفنا باصطناع وسائلها لكل قديم. ولا يتوقف احدنا ليسأل نفسه بإخلاص شديد هل تلك القداسة في حاجة إلى

المراجعة؟ أو هل يظل الحكم البلاغي الذي قيل في القرون الأولى من الهجرة يظل هو الحكم الذي نتوارث ذوقه، ونتعبد تفسيره ؟ " (1)

والدكتور عبد المالك مرتاض واحد من المفكرين المعاصرين المهتمين بالشأن البلاغي الذين يدركون أن البلاغة كغيرها من العلوم اللسانية والإنسانية أساسها التفكير، وعمودها التنظير. فالنظرية هي التي على أساسها يقوم العلم ويرتفع ويتوسع، والتطبيق مبرهن على صدقها صحتها وسلامتها. والعلم الذي يهمل النظرية يصعب قيامه، وتقوم قيامته. والدرس اللساني العربي بصفة عامة، والدرس البلاغي منه بصفة خاصة، فيه إهمال واضح للنظرية قراءة ونقاشا. وفيه إجحاف فاضح في حق المنظرين المهندسين الذين بنوها وعلّوا صرحها بأرائهم ونظرياتهم الخاصة. وكأن البلاغة رأي عام لا يحق لأحد أن ينفرد فيها برأي مخالف، أو أن يأتي بنظرية جديدة. أو هي من علوم الآلة التي نضجت واحترقت كما يقولون عنها ظلما وعدوانا، وافتراءا عليها وطغيانا. بخلاف ما نشاهده في الغرب من كثرة النظريات وولع بالتنظير والمناقشة. وعندما تكبر عندهم النظرية ويكثر أتباعها تتأسس حولها المدرسة. والدكتور عبد المالك مرتاض قد أدرك أن حجر الزاوية أو حجر الأساس في الصرح البلاغي هو النظرية ومناقشتها. وعلى ضوءها راح يعيد النظر في البلاغة ماضيها وراهنها ومستقبلها. ويلقي عليها نظرة تمثيلية بعيدة عن المعيرة والاجترار. وسلط الضوء على جوانب مازالت مجهولة أو مهملة وغير مطروقة في الدرس البلاغي العربي المعاصر. ودعا . بقوة إلى بلاغة جديدة، وإلى قضايا ومفاهيم بلاغية جديدة على مستوى التنظير والممارسة وفق تصوّر آخر، ومداولة أخرى، ومنهج جديد. فكانت دعوته . بحق عودة إلى النظرية في البلاغة.

ولو كان الدكتور عبد المالك مرتاض وأمثاله غربيين وليسوا عربا . لأن الواد مازال يمارس في العالم العربي إلى اليوم على نطاق واسع . لطارت شهرتهم في الآفاق وأسسوا مدارس في حياتهم تحتضن وتتبنى أفكارهم ونظرياتهم ليحتفى ويحتفل بها في كل مناسبة وفي غير مناسبة. ولحظيت أفكاره بالدراسة والتفحص من قبل المهتمين وأهل التخصص، ممن يحتفون بالنظرية ويحتفلون بها. ولا تنتشر صيتهم في ربوع

(1) رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقني والتطور، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، الطبعة الثانية 1988 ص 7

العالم. ولكن، للأسف، عبد المالك مرتاض، كغيره من نوابغ العرب، القدامى والمحدثين قد ولدوا ليموتوا، لأن الأفكار لا تعيش عندنا طويلاً، والواقع يسفه أحلامنا، ولسنا ممن يشتري الحكمة بالمال، لارتباطنا بعالم المادة والأشياء واللعب، ولا قيمة للنظرية عندنا. هؤلاء المفكرون العرب ينشؤون النظريات ويدافعون عنها وحدهم بصوت مبوح أو محتشم، وإمكانيات محدودة أو مفقودة، وعمر قصير. ثم لا تلبث نظرياتهم أن تتبعهم لتلحق بهم بسرعة إلى مثاهم الأخير. وإن عاشت فإنها تعيش معهم حياة أشبه ما تكون بالموت، ثم تنسى أسماؤهم وتمحى نظرياتهم من سجل الوجود وسجل المعرفة. أما المفكرون، وأصحاب النظريات من الغربيين فإنهم يبقون في الحياة حتى بعد الموت. لا أكتب هذا الكلام من باب التثبيط أو التشاؤم. لأنني أرجو أن تلقى نظرية الدكتور عبد المالك مرتاض صدى كبيراً واستجابة واسعة، من خلال عودة العرب إلى الاهتمام بالنظرية البلاغية، ومناقشة ما فيها من آراء وأفكار قد يكون لها مكانها ومكانتها في العلم و العالم.

2. نقد التراث البلاغي:

يدرك جميع الباحثين الموضوعيين المنصفين أن آفة العلم هي النسيان والتقليد. والتقليد قد قتل البلاغة العربية وأدى بها إلى الجمود والركود، ومحاربة الجديد وتداول القديم الذي أكل عليه الدهر وشرب ردحا من الزمن. وقد عرفت البلاغة العربية المبالغة في التمجيد جعلتها في وضعية تجميد وتقليد. وصارت توصف بالعجز عن مواكبة المستجدات العصرية وتلبية حاجات المخاطبين، ولكن كثيراً من الباحثين المتعصبين الأحاديي التفكير يعتبرون مثل هذه الآراء افتراء على البلاغة فتجنبا على التراث، مثل فضل حسن عباس الذي يقول: "وما نظن أن تراثاً تنكر له أبنائنا، فرموا بالعقم تارة، وبالتبعية تارة، وثلاثة حملوه جميع أسباب خيبتهم وتخلفهم، أقول: ما ظن تراثاً لاقى ذلك الجحود كله كترائنا نحن. لقد نظر إليه بعض هؤلاء فوجدوه حرياً بالتقدير، جديراً بالإشادة، وهم لا يودون أن يعترفوا بشيء لسلف الأمة من هذا، فعمدوا إلى التشكيك في أصالته، فزعموا أن السلف سرقوه من الأمم المختلفة في أعصارها وأمصارها. ولكن فئة أخرى من أولئك سلكت مسلكاً آخر لا يقل خطورة ووعورة عن سابقة، فزعمت أن هذا التراث - وغن لم يكن مسروقاً - إلا أنه ينبغي أن يُحمل مسؤولية ما نحن فيه، من تخلف، وتخبط، وتبعية، واستبداد، واستغلال،،، على غير ذلك مما نعانیه. ويشهد الله، أن كلا الفريقين جانب الصواب، فلم يكن أحدهما أبعد عن الحق من صاحبه، بل هما في البعد سواء. فتراثنا مع أصالته جدير بأن يبويء من استطاع أن يفيد منه قمم المجد، ومنزل

الرفعة، ويمكنهم من أسباب النصر. ولا أقول هذا عصبية." (2) وهذه هي العصبية بعينها تنفي عن نفسها العصبية أو تنفي نفسها. والحق أن التراث البلاغي قد لاقى هذا الجحود الذي لم يضره في شيء، كما قد لاقى التقديس والتمجيد الذي لم ينفعه كذلك في شيء.

إن دراسة التراث البلاغي وغير البلاغي دراسة نقدية موضوعية تثير غضب المحافظين، وحفيظة التقليديين ومثل "هذه الدراسة قد تصدم القاريء حين تجادل في مسلمات اكتسبت هذه الصفة من طول التكرار، ومن دوران ملول ينقلها به جيل إلى جيل. ولكن لأبأس، فسوف نتحمل ما يقال، بكل ثبر، فذلك أفضل من أن ننضم إلى قافلة الاسترخاء حول ما قيل، والاكتفاء بترديد ما ابتذل. قد آن أن نفكر في الأشياء بدلا من أن نردد ما قاله الآخرون كأنه الكلمة الأخيرة. وبالمثل، فما نقوله - هنا - ليس هو الكلمة الأخيرة، والتي لا تقال أبدا. فالذوق الفني، والحكم الأدبي، يتطور ويتبدل من عصر إلى عصر، إن لم يكن من فرد إلى فرد. ولا يعني ما نقوله - هنا - أننا ننفي عن الدراسات البلاغية المتوارثة أية قيمة، فذلك خطأ في الرأي، نبريء أنفسنا منه. وإنما نعني ضرورة الكف عن ترديد ما قيل. ونعني، ضرورة التنقيب حول ذلك الذي قيل، لنذكر حقيقته، والأسباب التي دعت إليه، وهل يتسق مع حقيقة ما نبغيه من درس البلاغة." (3)

والدكتور عبد المالك مرتاض قد تناول البلاغة بالتأمل والتدبر والمناقشة والاكتشاف والنقد أحيانا في موضع النقد. ودعا إلى استنتاج بلاغة جديدة، ليس على أنقاض البلاغة القديمة، وإنما على أكتافها وباستثمارها. أي دعا إلى الانتقال من الجانب النظري إلى الجانب التطبيقي الإنتاجي. وهي في نظريته: "،،، بلاغة تمثل فكرا وجمالا وسلوكا تعبيريا يقع لعامة المتعلمين، في مستويات مختلفة، وفي وظائفهم الاجتماعية والسياسية والثقافية. فكل من يرضى أن يكون امرأً عمومياً، يشغل بشؤون الناس في الدولة، هو مضطر إلى أن يكتب، أو إلى أن يخطب، في المقامات. ومن جعل نفسه كاتباً أو خطيباً، فعليه أن يحسن الكتابة والخطابة. فيبلغ ما في نفسه للناس من أقرب طريق، وأقل كلام، وأعظم تأثير." (4) هذه هي البلاغة التي اجتهد في رسم ملامحها على حد تعبيره. وهي بلاغة عامة المثقفين

(2) البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الثانية 1999 ص 12 .

(3) رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقني والتطور، مرجع سابق، ص 7 .

(4) نظرية البلاغة، دار القدس العربي، وهران، الجزائر، الطبعة الثانية 2010 ص 10.

والموظفين وكل المتعلمين. وهي موجودة بالفعل في أوساط الأمم المتحضرة والمجتمعات المتنورة. وهذه النظرية نظرية واقعية، معاصرة، ومحايثة، ومحينة، للفعل البلاغي، متجنبنة الخوض في القضايا التعليمية والتقنية.

والقداى لم يكملوا بناء الصرح البلاغي الذي لا يمكن أبداً أن يبنيه شخص واحد، ولا أمة واحدة، ولا في زمن واحد. لأن البلاغة كغيرها من العلوم تقوم جميعاً على مبدأ التراكم التدريجي عبر الأجيال والأمم. إن التفكير البلاغي عند الدكتور عبد المالك مرتاض يراهن على التوظيف والاستعمال الميداني لمعطيات التراث البلاغي وأدواته، وقد استطاع التحرر من التشيع الأعمى للبلاغة القديمة، وذلك بفضل تشبعه بالثقافة اللسانية الأكاديمية الحديثة التي يتمتع فيها بدرجة الأستاذية الدولية. ولهذا لم يتحرج من نقد إمام البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني نقداً علمياً موضوعياً، وربما يعتبر بعض التقليديين هذا النقد لإمام البلاغة العربية اجترأاً أو افتراءً أو تحاملاً. وقد تنبه إلى هذا وكتب يقول: "إنا لنعلم أن أحداً لم يعترض على الشيخ هذا الاعتراض فيما اطلعنا عليه. ولكن اعتراضنا يظل قائماً. لأننا بنينا على رصدنا لما ورد في كتاب دلائل الإعجاز. وإذن، فإما كان يقع تغيير عنوان الكتاب، وإما كان يقع تغيير مضمون هذا الكتاب ليتلاءم مع العنوان. وكيف يستحيل ما كان في العنوان أصلاً إلى مجرد فرع في صلب الكتاب؟؟" (5)

وهذا النقد لا ينقص من قيمة وقدرة عبد القاهر الجرجاني شيئاً. بل بالعكس، يزيد في قيمته وقدره، لأن الذين قدسوه وشايعوه لم يقرأوه قراءة واعية، ولا قراءة كاملة، بل ربما لم يقرأوه أصلاً، هذا إذا كانوا ممن يقدر على قراءته. لأن قراءة عبد القاهر الجرجاني وحدها تتطلب مستوى لا يقل عن مستوى الدكتور عبد المالك مرتاض. هذا المستوى العلمي العالي النافذ الناقد هو الذي يؤهل الباحث لمعرفة النقائص التي يعاني منها الدرس البلاغي، وسبر أغوار كثير من القضايا البلاغية المهمة التي لم يلتفت إليها القداى ولا المحدثون، وتنقية التراث البلاغي من كثير من المسلمات التي تجاوزها الزمن، وتطعيمها وتدعيمها بالمستجدات العصرية. ويعتبر نقد التراث سمة أساسية من سمات تطور الدرس البلاغي عند عبد المالك مرتاض لا يمكن استنقاصها أو التغاضي عنها.

(5) المرجع السابق، ص 59

ولقد اكتملت شروط الباحث العالم للدكتور عبد المالك مرتاض وهو يتناول موضوع النظرية البلاغية كموضوع جديد: من إدراك لصعوبات الجدة، وضرورة التعاون، وحب النقد والمناقشة. إذ صرح وهو بصدد تقديم نظريته، أو بالأحرى، النظرية البلاغية للعالم قائلاً: "إن هذا الموضوع الشريف يحتاج إلى جهد أعمق من جهدنا، وإلى طول نفسٍ أطول من نفسنا، وإلى خاطر أذكى من خاطرنا، لكي تقع بلورته، ولكي ترسم ملامحه في صورة أوضح، وتجلى في مرآة أنظر. ونحن لم يَهَيِّأ لنا شيء من ذلك... فليس ميسوراً أن يقع تناول موضوع نظرية البلاغة لأوّل مرّة في اللغة العربية . ولو بالعنوان على كل حال . دون العثار. فقد صادفنا ثانياً وعرة، ظللنا فيها نتعرّش ونكبو. وإن الذي نود أن نختم به هذه الكلمة التقديمية لهو تكرار دعوتنا الباحثين الشباب إلى التصدي لهذا الموضوع من أجل تعميق معالجة قضاياها اللطيفة، ولانتقاد ما لم نوفق نحن إليه من عملنا هذا، بالتوسعة والاعتراض." (6) أياً للروعة، هذا هو العالم الأستاذ الدولي المعاصر المتواضع، يقول هذا الكلام من أجل الدعوة إلى النظر والتفكير والمناقشة وإبداء الرأي، ونبذ عقلية التكديس والتقديس.

إن أصالة التراث البلاغي العربي لا تعني إطلاقاً شيخوخته، ولا أن قيمته في قدمه، ولا أن هذه الصفة التي تلازمه تتنافى مع متطلبات الحداثة ومقتضيات العصرنة. ولا تعني أصالته كذلك قداسته ونزاهته وبراعته من النقائص والهتات، أو أنه تبر بلا تراب، وذهب خالص من الشوائب.

إن القدامى بذلوا ما في وسعهم، وكتبوا لموطنهم ومعاصريهم. ونحن أيضاً ينبغي أن يكتب لنا معاصرون. ولا يحق لنا تلقي البلاغة القديمة إلا من خلال تلقي معاصرينا لنا بعد تشكيل ما يصلح منها تشكيلاً جديداً يتلاءم والكتابات والخطابات الأكاديمية الحديثة. وإلاّ فسوف يصدق علينا المثل الجزائري القائل: "العرس في شفة والتاوسة في باب الوادي". وشفة هذه مدينة صغيرة تقع غرب ولاية البليدة تبعد عن باب الوادي المدينة الساحلية بولاية الجزائر العاصمة بنحو 50 كيلومتراً. والتاوسة أو الرشقة هي ما يقدمه المدعوون والأحباب ليلة العرس للعريس أو العروس أو للطفل يوم ختانه. والتاوسة لا تكون سوى في، العرس. ولا تكون أبداً وهي في عصر والعرس في عضصر آخر، أو وهي في بلد والعرس في بلد آخر. لأن هذا يعني فساد العرس وضياع التاوسة. هذا هو حالنا وحال البلاغة العربية القديمة، نحن لا

(6) المرجع السابق، ص 13

بلاغة لنا سوى البلاغة القديمة. مثل الأحفاد الذين يحيون ذكريات أعراس أجدادهم وجداتهم، ولا أعراس لهم سوى هذه العراس العتيقة.

2. تكافؤ بلاغة اللفظ وبلاغة المعنى في النص:

النص البليغ هو الرسالة المؤثرة والمقنعة التي تعجب المتلقي (السامع أو القارئ) وتتفعه. وقد كثر الجدل حول أولوية اللفظ على المعنى وأوبوية المعنى على اللفظ في النص البليغ. وقد استطاع الدكتور عبد المالك مرتاض أن يخلصنا من وجع الرأس في هذه المسألة القديمة التي لم تحسم بعد، أو ما زلنا نمر على الطريق الطويل نفسه الذي مرّت به " فمسألة اللفظ والمعنى التي استهلكت ملايين الساعات من جهد العلماء المسلمين في القرون الخالية هي في نهاية الأمر زوبعة في فنان، فلا معنى ينهض في الإدراك، ويتلقاه الذوق، دون أن يكون مجلّى في ألفاظ جميلة تليق بشأنه، ولا ألفاظ يمكن أن تقوم في الذهن بمعزل عن المعاني، ولا يجوز لأي كلام دالّ يتخاطب به الناس إلّا في شبكة من التركيب، " (7) وهذه القضية ما زالت تعيش في كتب البلاغة العربية إلى اليوم، وتُجترّ حيثياتها بالتفصيل. ويرجح فيها بعضهم اللفظ على حساب المعنى ويقفون إلى جانب الجاحظ في أن المعاني سهلة ومجانية ومطروحة في الطريق يعرفها جميع الناس. وكأنّ الناس جميعهم علماء ومفكرون وحكماء وفلاسفة. وفريق ثانٍ يرجح المعنى على حساب اللفظ ويقف إلى جانب الجرجاني و" المسألة تنهض على مكونين اثنين في نسج الكلام، لا يمكن أن يمثل أحدهما بمعزل عن الآخر. " (8) وانتهت المسألة إذن.

اللفظ والمعنى كلاهما مكوّن أساسي من مكوّنات النص. وإذا كان النص بليغاً فالفضل يعود لهما معاً. وإذا نزل النص عن مستوى البلاغة فالنقص يكون في أحدهما أو فيهما معاً أيضاً. فالانسجام والتكافؤ لا بد أن يكون موجوداً بين اللفظ والمعنى في النص البليغ حتى لو كان النص جملة واحدة. وهذا أيضاً من سمات البلاغة الجديدة التي يدعو إليها الدكتور عبد المالك مرتاض. والسؤال المطروح: هل سبقه أحد إلى هذا الرأي أم هو رأي جديد لم يسبق إليه؟ وأترك هذا السؤال لغيري من الباحثين لكي يجيب عنه.

(7) المرجع السابق، ص 60

(8) المرجع السابق، ص 66

3. تجديد مفهوم الصورة البيانية:

الصور البيانية أربعة هي: المجاز العقلي، والكناية، والتشبيه، والاستعارة. وهي موضوع ما سمي بـ"علم البيان". وقد اهتمت البلاغة القديمة بالناحية التقنية للصورة البيانية. وكأن الجانب التقني وحده يؤهلها للبلاغة دون النظر في خصوصية هذه الصورة أو عقمها. وقد أشار الدكتور عبد المالك مرتاض إلى الصورة البيانية العقيمة بقوله: "ويمثل عقم الصورة البلاغية العربية في طائفة من المظاهر في رأينا نحن على الأقل، نذكر منها:

1. الكلف بترداد النماذج الشعرية الرفيعة التي كان استشهد بها أول مرة عبد الله بن المعتز. كما وقع استنساخ الشواهد التي جاء بها الرماني والخطابي من بعد ابن المعتز عبر العصور السحيقة، فعزفت الأذهان عن قراءة النصوص الأدبية الراقية، واجتزأت بتكرار تلك الأمثلة التي كان الأوائل اهتموا إليها، ليس إلا.

2. الحرص على تععيد التقاليد التعبيرية التي وصفت بالبلاغية وتحنيطها، بحيث لا ينبغي لأحد أن يفكر في مجاوزتها، أو الخروج عن معالمها. فعزف المتعلمون عن حفظ أجمل الآثار الأدبية من أجل اكتساب الفصاحة، وامتلاك البلاغة، إلى حفظ تلك القواعد، والاجتزاء بها في حياتهم التعليمية. وكأنهم بحفظ مصطلحاتها، واستيعاب ضوابطها المدرسية كانوا يستطيعون أن يكونوا من أكابر البلغاء وفطاحل الفصحاء." (9) وذكر مظاهر أخرى لعقم الصورة البلاغية نلكن المظهر الأول والثاني هما أهم المظاهر. المتمثلة في التقليد والتععيد.

ويوجد كثير من القش القديم البالي الذي لا نحتاج إليه في البيت البلاغي العربي، وينبغي تجاوزه والتخلص منه. هذا البيت البلاغي العربي العتيق يحتاج إلى إعادة ترتيب وتوظيف وإلى تائيث جديد، في المصطلحات، والمفاهيم، والشواهد، والأمثلة. هل يعقل، مثلاً، أن نبقى دائماً نردد أن التشبيه البليغ هو الذي يحذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه، ويذكر فيه المشبه والمشبه به كأنهما شيء واحد ولو كان هذا التشبيه المسمى بليغاً ليس بليغاً؟ وهل تكون البلاغة بطريقة آلية ميكانيكية؟ فقد يكون هذا التشبيه أو غيره من

(9) المرجع السابق، 212

أنواع الصور البيانية والمحسنات البديعية لا يعجب أحدًا، فهل يروق أن نبقية في البيت البلاغي؟ والأمثلة على اضطراب المصطلحات والمفاهيم والشواهد التي يضيق بها البيت البلاغي كثيرة جدا ما زالت معيارا على تفكيرنا البلاغي دراسة وتدرسا. ولم نعترف بعد السكاكي بعلم أو عالم آخر . مع كثرتهم ووفرتهم . من أعلام البلاغة العربية وعلمائها.

4. تكافؤ بلاغة الإرسال وبلاغة التلقي في الخطاب:

جعل القدامى البلاغة دائما في خدمة المتلقي. فالبلّغ هو الخادم أو العبد، والمتلقي هو المخدم أو السيد. ووضعوا شروطا صارمة للمتكلم، وكأن النجاح التواصلي يتوقف عليه وحده، ودلّوا الطرف الثاني وهو المتلقي، بل رأيه دائما هو الصواب، ورفضه دائما مبرر بفشل المرسل. هذه حقيقة لا ينبغي إنكارها، والدكتور عبد المالك مرتاض نبه إلى هذا الظلم الممارس في التواصل البلاغي، المعشش في أبجديات البلاغة منذ القديم، إذ يقول: " جاء مصطلح البلاغة كما هو باد من قولهم بلغ الشيء منتهاه، وأدرك أقصاه. فكان البلّغ لدى اصطناعه الكلام تعبيرا عما في صدره يبلغ غايته من متلقيه بأيسر طريق. ولكن بأجمل لفظ وأحسن تعبير. فالمعنى ينهض على طرفين اثنين: طرف يتمحض للباحث، وكيف عليه أن يقدر على البلوغ من المتلقي المبلغ الذي يريد. وطرف ينصرف إلى المتلقي، وكيف يستقبل الرسالة الكلامية المبنوثة فتؤثر فيه بجمال صياغتها، وأناقة ألفاظها، ودقة معناها . " (10) هذا هو التفاعل البلاغي.

وعندما نحلل عبارة " لعنة الله عليك، يا لك من شاعر " التي عبّر بها الدكتور عبد المالك مرتاض عن إعجابه بالبلّغ وهو يرتشف جرعة من جرعات الشعر الجيد الذي يصنع الدهشة والنشوة معًا، وأمام الشعر البلّغ، لا يستطيع الناقد مهما كان صارما، ومهما أوتي من موضوعية وحياد أن يتنازل ولو للحظة واحدة عن إنسانيته، وعن حقه كمتلق للإنتاج الشعري بعدما تذوّق حلاوة البنية الشعرية، وسرى مفعولها في أوصاله كمتلق، فقد احتسى كأسها حتى الثمالة، فأثملته، وأسكرته وأثّرت في أعماقه، فنطق كما ينطق السكران الثمل، متخليًا عن واجب التحقّظ وقيود الديبلوماسية التي تفرضها عليه الأجواء والأضواء الإعلامية، وموقفه كأكاديمي ناقد، ينبغي أن يكون كلامه موضوعيا لا ذاتيا، وخبريا لا إنشائيا، فانفجر بهذه

(10) المرجع السابق، ص17

العبارة القوية التي تتمّ عن ما يسمّى في اللسانيات الحديثة بالاستجابة للمرسلّة اللغوية، وما يسمّى في النقد الحديث بجمالية التلقي.

وفي خطاب نوعي، كالخطاب الشعري مثلاً، ينبغي أن يكون المتلقي أيضاً في مستوى الخطاب، حتى يكتمل مفهوم الخطاب الشعري، ويقع التواصل الإبداعي، ويتمّ وفق شروطه الأساسية. ولو قرأ هذا الشاعر مثلاً، هذه القصيدة نفسها، على متلقين آخرين، لا علاقة لهم بالشعر، ولا يعرفون أبجدياته، ولا يتمتعون بأدوات التلقي، لكان الحكم الصادر على هذه القصيدة، وعلى هذا الشاعر، غير هذا الحكم.

فالدكتور عبد المالك مرتاض يتمتع ببلاغة التلقي، والشاعر يملك بلاغة الإرسال، فحدثت شرارة التواصل الإبداعي، التي أنارت القلب، وأحدثت التوهج، لأن هناك تكافؤاً في المستوى الثقافي بين المرسل والمتلقي. والدكتور عبد المالك مرتاض يؤكد، بالتوكيد اللفظي والتوكيد المعنوي، وبغيرهما من أنواع التوكيد، على ضرورة تقارب المستوى الثقافي بين المبدع والمتلقي حتى تنجح عملية التواصل الإبداعي، ونجده يقول: "إنّ أفصح الكلام وأبلغه، لويلقى في متلقين لا يفهمون لغة ذلك الكلام، لما كان له أيّ تأثير. وإنّ، فلا بدّ من تضافر متلقين بلغاء، بالمقدار الذي يشترط فيه وجود باثين، أيضاً بلغاء: يتدوّقون الرسالة الأدبية المتلقاة، ويتحسّسون جمالها. وإلاّ، فجمالية الأدب، تفقد كلّ معنى لها، إذا ظلّت أحادية الجانب." (11)

فالمتلقي البليغ، المثقف، المتعلم، سواء كان متلقياً عادياً، أو متلقياً نوعياً، يتجاوب مع النص الأدبي البليغ، فيتشربه، وينتشّي به، ويسكر، ويتشظى فيه، ويضطرب ويضطري، ولكنه لا يعرّد، لأن شيطان الشعر يُوشّوش ولا يُوسوس، فيضطرب المتلقي، وربما يرقص، وربما يصفق ولا يصفرّ، وربما يصيح، ويصبح بدوره شاعراً آخر من نوع آخر.

والإبداع الأدبي الراقي، تتطلب مطالعته، وتقنّضي مقاربته، وجود تهيئة ثقافية ولغوية لدى جمهور المتلقين، ومستوى عالٍ مشحوناً بالشعرية في اللغة التي يخاطب بها الشاعر جمهوره، "وقبل أن ينصرف الوهم، إلى هذا المستوى من بلاغة التلقي، واكتساب القدرة على التمييز بين القول البليغ والقول المبالغ

(11) المرجع السابق، ص 225

فيه، على الناقد أن يعرف مقدار الشبغ بالوعي الجمالي لدى المتلقين. إذ دون حصول ذلك الوعي الجمالي تضيع الرسالة الأدبية المبنوثة بين أناس لا يفهمونها، ولا يدركون أبعاد جمالها. ⁽¹²⁾ فكم من الجواهر الأدبية ضاعت، أو هي في حكم الضائع، لأنها لم تجد متلقين يقاربونها ويطاولونها، وكم من مناظر طبيعية خلابة، لا يؤبه لها ولا يُعَبَّأُ بها بسبب العشوّ في البصائر والعقول، لأن الإنسان ليس واحداً.

واليوم، قد طغت بلادة المتلقي على بلاغة المرسل. وصرنا . للأسف . نحمل أوهاما نتحامل بها على البلاغة. ونستطيع تسمية هذه الأوهام السلبية أفكاراً خبيثة، أو أفكاراً هدامة أو اتهامات لا أساس لها من الصحة، منها مثلاً أن السكاكي هو الذي قتل البلاغة. لأن كتابه "مفتاح العلوم" عكف عليه الخلف شرحاً وحشواً وتلخيصاً وتكراراً وترتيلاً وتمجيداً وتحميداً. وليت من يصدق هذا الرأي ويروج له كان قد قرأ هذا الكتاب كاملاً ليعرفه ويفهمه. لأن هذا الكتاب الذخر ليس ذخيرة في البلاغة فحسب، بل هو كتاب في اللسانيات العربية العامة، يدرس اللغة العربية في مستوياتها اللسانية بدءاً بالصوت والصرف، وانتهاء بالتركيب النحوي والبلاغة. فالبلاغة إذن هي آخر فصل من فصول هذا الكتاب وليست هي موضوع الكتاب كله. ولا بد من ذكر الأسباب الحقيقية التي أفضت إلى تجميد البلاغة بعد تمجيدها وأهمها التردد الببغائي والتقليد الأعمى وترك النظر والتحليل والمناقشة. وما أدى إلى تحييدها عن مجال المدارس والممارسة.

كما أن البلاغة العربية أصبحت اليوم كالقاصر أو المحجور عليه يغتاب كثيراً ويمنع من الحضور والتصرف ويكثر عليه الكلام والقيّل والقال. في حين تستلب ثرواته وتنهب كنوزه من هنا وهناك من طرف العلوم المجاورة. فقد ظهرت إلى الوجود علوم لسانية حديثة مجاورة للبلاغة ومشابهة ومشاركة لها كالأسلوبية والشعرية جل أدواتهما هي أدوات البلاغة. ولا ينبغي قتل شيء أو وأده للاستفادة من إرثه ومخلفاته.

(12) المرجع السابق، ص 240

إن الإطار المعرفي للبلاغة العربية يعد بإمكانات واسعة للتفكير والنقد، والأخذ والرد، من أجل تحديث وتجديد البلاغة العربية في المضمون والمنهج. لأن النتيجة التي تركها تغييب النظرية البلاغية لسبب أو لآخر هي فساد تعليم البلاغة والأسلوب، وقلة الإبداع، وضعف التلقي.

خاتمة:

التعبير البلاغي يشف عن أسمى ما يتوصل إليه الإنسان من تربية وأخلاق وعلم وقيم. ولا يمكن تعقيد أو تجميد التعابير البلاغية. وقد آن الأوان كي تعود البلاغة شرطا أساسيا في المعاملات اللسانية المكتوبة والمنطوقة. لأنها كانت منذ الأزل ولم تزل شرطا أساسيا لازما لاعتبارها من الملكات اللسانية الرفيعة ومن الآداب. وقد كانت صفة ثابتة في جميع أنبياء الله تعالى ورسله العرب منهم و غير العرب. وأمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يخاطب الناس بخطاب بليغ في قوله تعالى: "وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا." وقد كان كلام النبي عليه الصلاة والسلام في أعلى مستويات البلاغة والبيان كما كان القرآن الكريم يمثل المستوى الإعجازي في البلاغة والبيان.

إن البلاغة شرط في الكلام، وشرط في التربية، وشرط في التعليم، وشرط في المعاملات كلها. ويوم تنازل الناس عن البلاغة تنازلوا عن العلم والأخلاق والآداب. أيها الناس: البلاغة ليست مجرد تقنيات وقواعد معيارية، أو مجرد علم من علوم اللغة كالنحو والصرف، أو صفة من صفات الأدب شعره ونثره، إنها أكثر من ذلك وأكبر. إنها الإنسانية اللسانية والقلبية والفكرية والأخلاقية. توجد أو تفقد في الأدب، والعلم، والدين، والسياسة، والإدارة، والتعليم، وفي كل شؤون الحياة. ووجودها عامل من عوامل السعادة والنجاح. وغيابها سبب مباشر من أسباب الشقاوة والإخفاق. نعم، لا بد من تأثير الأسئلة حول البلاغة لمعرفتها أكثر، ولمعرفة أنها من العوامل الاقتصادية التي تصنع الثروة والرفاهية في الدنيا والآخرة. وهذا بترميم التشققات الفكرية التي أصابتنا حول مفهوم البلاغة ووظيفتها في عصر العلم والتكنولوجيا. أليست البلاغة أيضا من العلم والتكنولوجيا؟؟؟

إنّ مسائل اللغة كلّها ذوقية، وليست فوقية. مثلها مثل الطعام، تخضع لمقياس الذوق والقيمة، والاستحسان. إذا استحسن المتكلم كلامه واستساغه ووجد له طعما وقيمة، واستحسنه أيضا سامعه، ووجد فيه كذلك نفس الطعم ونفس القيمة، في هذه الحالة تحضر البلاغة كالشمس الدافئة في أيام الشتاء و الربيع، يتمتع بحضورها الجميع.

البلاغة هي مشاركة في تداول فائدة الحديث ومتعته بين طرفين المرسل والمتلقي، فاليد الواحدة لا تصفق. إن الدورة البلاغية لا تنشأ أبداً أبداً من طرف واحد، وقد ركز التفكير البلاغي القديم والحديث على طرف واحد، هو المرسل. وأهمل المتلقي، ولم يجعل له أي دور أو تمثيل أو تشغيل في الدورة البلاغية. واعتبرته سيد الموقف، كالملك، أو كالأمير، يُخدم ولا يخدم، ومن حقه أن يرفض أو أن يغضب، وأن يُعرض، ويُزور، ويستتلف عن كلام المرسل، والانتقاد يوجه دائماً إلى المرسل المتكلم. إن الدرس البلاغي في معظمه قد أعفى المتلقي من كل المسؤوليات في العملية البلاغية، حتى من عملية السكوت من أجل الإنصات. وبرأته تماماً من المسؤولية في إجهاض العملية البلاغية وحملتها كلها للمرسل وحده. وهذه الحلقة المفقودة في الدرس البلاغي القديم والحديث، قد حاول الدكتور عبد المالك مرتاض استعادتها وتفعيلها في المفهوم البلاغي الذي ينبغي ترسيخه في البلاغة الجديدة.

المراجع:

- (1) عبد المالك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي، وهران، الجزائر، الطبعة الثانية 2010
- (2) نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر، الطبعة الثانية 2010
- (3) فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، دار الفرقان، عمان، الأردن، الطبعة الثانية 1999
- (4) رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، دار المعارف، الإسكندرية، مصر، الطبعة الثانية 1977